المجلة الثقافية العربية: سلطة الواقع.. أم شهوة الحلم؟

د. علي جعفر العلاق

رئيس تحرير مجلة الأقلام (بغداد)

١ ـ في بيت شهير له كان المتنبي يفضّل السرج سريراً لليل، والكتاب جليساً مثالياً. وبعد مضيّ قرون لا أظن أن الأمر قد ظل كذلك، فلقد تغيرت أشياء كثيرة، واختلت معايير بكاملها.

لم يعد سرير المتنبي قادراً، كما يبدو، على الدخول في منافسة ضارية مع أحدث موديلات غرف النوم، المترفة حد الجنون. أما جليسه المفضّل فلم يعد دون منافس دائماً، لم يعد سيداً مطلق السيطرة باستمرار، أو مبعثاً لنشوة لا مصدر لها سواه.

هل شكل ظهور المجلة الثقافية أول مزاحمة لأفضل الجلساء: الكتاب؟ يبدو أن الأمر كذلك؛ فلم يعد الكتاب، بعد ذلك، يتصدر مائدة الزمن بثقة كاسحة، ولم يعد سيد الجلسات كلها ومصدر لذتها دون منازع. لقد ظهر جليس آخر، ربما كان أخف دماً، وكان شديد التنوع بالتأكيد: يمتع **جلساءه** بذكاء جمّ، ومرح حميم وموضوعات تخلق، رغم تنوعها الظاهر، مناخاً بالغ **العذوبة**.

إن هذا الجليس الجديد حيوي، لبق، مثابر لا يثقل عليك بجلسته، ولا يسهب في حديثه: طلق، متنوع، دينامكي. لا يطيل الزيارة لكنه لا يطيل الغياب أيضاً. وهكذا تأتي روح العصر إلينا بكائن جديد، يدخل بثقة إلى كياننا الثقافي والاجتماعي. لم يهبط من الغيب ولم يسقطه علينا طائر خرافي، أو ريح مفاجئة. بل ساقته إلينا حاجات العصر، وطبائعه، وضغوطه: إنه المجلة الثقافية التي تستجيب لإيقاع العصر بحيوية أشد، ونبض أكثر حرارة.

٢ ـ إن المجلة الثقافية تستطيع، بحكم طبيعتها، أن تلامس المتغير الثقافي، وتتابع المتحرك والراهن في حركة الإبداع الأدبي، لذلك فهي جديرة، جدارة خاصة بأن تكون شاهداً هاماً على ما في الحياة العربية من دفق ثقافي وأدبي.

لا شك في أن الكتاب أكثر قرباً مما هو ثابت، نسبياً، في حركة الثقافة. غير أن المجلة تحتفظ بقدرة واضحة على الإمساك بالنبض الحي للثقافة والأدب والحياة. وهذا لا يعني أن الكتاب ثقافة ساكنة وثابتة. إن ما نعنيه هنا هو أن المجلة الثقافية أكثر حركة من الكتاب وأشد ملامسة لضجة الحياة وتوترها.

وحين تكون الصلة بين الكتاب والمجلة على هذه الدرجة من العمق فإنهما يسهمان، معاً، بفاعلية كبيرة في رسم المشهد الثقافي العام، في تقديم صورة للحياة العربية في جانبها الثقافي والأدبي الماثل. وإذا كان لنا أن نجد بين الكتاب والبحر شبهاً من نوع ما، فإن للمجلة قرابة وثيقة بالموج؛ فقد يهمل الكتاب حركة الموج استغراقاً منه بالجوهر الكامن، لكن المجلة، في أعدادها المتتالية، هي اقتناص مستمر لهذه الأمواج المسرعة الطافرة التي تكتظ بالحياة والحركة المثيرة. وحين يكون الكتاب تسجيلاً لمستوى النضج في ظاهرة ما، فإن المجلة رصد متتابع لحركة هذا **النضج**: لمفردات حركته وهي تتجه، خطوة خطوة، إلى غايتها النهائية. إن الكتاب قد يشكل أساساً يمكن أن يضاف إليه ما يعززه في حقله أو منهجه، وقد يكون عرضة للإزاحة، غير أن المجلة الثقافية تظل تراكماً مستمراً لضوء يسقط على البقعة نفسها **دائماً**. إنها إضافة دائمة، شهرية كانت أو فصلية. لون يضاف على الدوام إلى ملامح المشهد الثقافي وظلاله في هذا القطر العربي أو ذاك. وهي، بالتالي، عمق إضافي للنبرة، نبرة المجلة في اتجاه الهدف المرسوم: تحقيق صوت المجلة الخاص من جهة، وتحقيق صلتها بالقارىء من جهة ثانية.

إن للكتاب الجيد إسهامه العميق في تبصير القارىء بواقعه **ومستقبله** وماضيه أيضاً كما أن للمجلة، بحكم صلتها المتجددة بالقارىء، علاقة لا تقل عمقاً بحركة الذهن وصيغ التعبير عنها. إن لها، بكلمات أخرى، قدرة أكبر على الشهادة على الحياة والإسهام في بنائها.

تتمتع المجلة الرصينة المؤثرة بقدرة قد يفتقدها الكتاب أحياناً، على الترويج للأساليب الجديدة في الفن والأدب؛ فهي صوت عميق يظل صداه حاضراً في الحياة الثقافية. وقبل أن تخفت آخر ذبذبة منه يطل مرة أخرى في عدد جديد ليعمق طريقه في الاتجاه ذاته. وليجعل نبرته أكثر وضوحاً وأشد إقناعاً. والمجلة الثقافية لا بد لها من سلوك أخلاقي يميزها، إضافة إلى سلوكها الثقافي، فالمجلة التي تتسم بالتحضر، والرقيّ، هي وحدها القادرة على أن تكون منبراً لجدل نموذجي، هادىء، هاجسه الحقيقة ولا شيء سواها.

٣ ـ لقد لعبت مجلات ثقافية كثيرة عربياً وعالمياً **أدواراً** مؤثرة في خلق ذائقة جديدة، والتأثير إيجابياً في الثوابت التي تحكم الذوق السائد. أي أنها استطاعت أن تقوم، دائماً، بزحزحة عميقة، رغم أنها تدريجية وخفية في البدء، للجزء الصلب من الجدار، لقشرة اللحاء التي تغطي شجرة الثقافة وتحول بين نبضها الأخضر الحار وبين هواء الحياة ذلك الهواء المترع بالحيوية، والنشوة، والتوتر. وبفضل هذه المجلات تصبح الحياة الثقافية أكثر حيوية وأشد ثراء. وتغدو، أيضاً أشد تماسكاً. أي أن هذه المجلات تلعب دوراً كبيراً في إلهاب الحياة، وتعميق ثرائها الثقافي.

لم تكن تلك المجلات وسيطاً محايداً بين المنتج الإبداعي أو المعرفي وبين مستهلكيه. ولم تكن ترتضي لنفسها، أبداً، أن تظل مجرد قنوات تمر عبرها النتاجات الإبداعية والثقافية هكذا دون تخطيط أو قصدية. لقد كانت ترفض أن تتحول إلى سلال للتجميع الثقافي: تتجاور فيها النصوص الأدبية كيفما اتفق، قد تتناقض فيما بينها، وقد يجافي بعضها بعضاً. بل كانت تلتزم منهجاً محدداً، وكانت تروّج لمنحى في الإبداع الأدبي والنقد، وتسعى، عبر أعدادها الخاصة والاعتيادية، وملفاتها ومحاورها إلى التمهيد لهذا الاتجاه الأدبي، وتهيئة الأرضية الذوقية والمعرفية له بين أوساط المتلقين. وهكذا تصبح المجلة، من هذا النمط، تدريجياً، رمزاً لتيار فني ما، وتغدو، عدداً بعد آخر، وسنة بعد أخرى، مصدر ضوءٍ خاص يتجمع تحت مصابيحه العالية قراء خاصوّن، ومتابعون متميزون، وكتاب ومبدعون من نمط خاص.

لقد حدث ذلك، عالمياً، بالنسبة لمجلة «تيل كيل» مثلاً التي صارت منبراً يجتمع لديه وحوله حشد من النقاد والمفكرين، وكانت صفحاتها سجلاً لما قدمه هؤلاء في مجال النقد الجديد وتياراته المختلفة كالبنيوية، والألسنية، والسيميولوجية. أما عربياً، فلا يمكن أن ننسى أن حداثتنا الشعرية خاصة والأدبية عموماً، تدين بالكثير لمجلات عربية مهدت لها الطريق في أرض جهمة، وشديدة الوعورة. ولا أظن أن القصيدة العربية، وما رافقها من نشاط نقدي، كانت ستلامس التخوم الحقيقية للحداثة، وتنغمر فيها بحيوية وعمق في معزل عن تلك المجلات التي قاتلت ببسالة مدهشة دفاعاً عن حق الكاتب أو المبدع أو المفكر في أن يكون **حديثاً وحراً، ودافئاً: مثل الأديب والآداب والكاتب والطليعةوشعر والكلمةوالشعر ٦٩**...

كانت مجلة **الآداب**، على سبيل المثال ومنذ تأسيسها في عام ١٩٥٣ ملاذاً لتجربة القصيدة العربية الحديثة، خاصة في انطلاقتها الأولى، التي واجهت خلالها عداء يصل حد التسفيه من قبل المنابر الثقافية ووسائل النشر السائدة آنذاك من جهة، ومن قبل الذوق العام ومستوى التلقي من جهة أخرى. لم تكن مجلة **الآداب** آنذاك محض وسيط للنشر. لم تكن محايدة، أو غير مكترثة. بل أرادت لنفسها، ومنذ البدء، أن تكون في صميم التيار. أن تكون مجلة ثقافية تنهض بنصيبها القاسي في مواجهة التخلف الأدبي، وتبنيّ الاتجاه الجديد للقصيدة العربية. وفي تبنيّها للحداثة الشعرية، لم تكن **الآداب** تتبنى اتجاهاً حديثاً مجرداً. بل كانت تسعى، في تبنيّها ذاك، إلى أن تفسح المجال، وتمهد الطريق لحداثة شعرية ملتزمة. لذلك فهي حين أصدرت عددها الخاص بالشعر العربي في كانون الثاني عام ١٩٥٥ لم تخف، في إفتتاحتها، روحية ذلك العدد الخاص؛ فمع أنه عدد يمثل جيل الشباب من الكتاب، ويحتضن نتاجهم الأدبي، فإنه يشجع الأدب الملتزم[1]. وهكذا شكلت مجلة **الآداب** سقفاً عالياً يحنو على اتجاه حداثي لا يبتعد بالقصيدة العربية عن أساسياتها الإيقاعية والجمالية ولا يوغل في تغريب النص أو الشاعر عن مرجعياته العربية إيقاعاً ونسيجاً لغوياً.

كانت مجلة **الآداب** تؤدي دوراً مسؤولاً وهي تواجه الريح الجديدة مخافة أن تقتلع ضراوتها المفاجئة الشاعر العربي عن ينابيعه الأولى. لذلك كانت هذه المجلة شجرة حانية احتشد بين أوراقها جيل من الشعراء الهامين: بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة ونزار قباني وفدوى طوقان وصلاح عبد الصبور وسعدي يوسف وآخرون.

٤ ـ وإذا كانت مجلة **الآداب** قد لعبت هذا الدور الحاسم بالنسبة للقصيدة العربية الحديثة، فإن مجلة **شعر** قد شكلت، هي الأخرى، سماء مغايرة، فهي لم ترد أن تكون صدى لمجلة **الآداب** أو رديفاً لها. لقد سعت مجلة **شعر** ومنذ عددها الأول عام ١٩٥٧ إلى الإفصاح عن هوية مختلفة اختارت الطريق المضاد. وإذا كانت **الآداب** قد نصت، في عددها الخاص، على تشجيعها للأدب الملتزم، فإن **شعر** تعلن في عددها الأول بجرأة واضحة، أنها تقيم

---

(١) **الآداب**، العدد ١ ك ٢/ ١٩٥٥، وراجع أيضاً: د. علي الشرع، **بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس**، دراسة. دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٧ ص ١٠.

النص الذي تنشره لاعتبارات فنية بعيداً عن الاتجاه الفكري أو السياسي لكاتب ذلك النص[٢]. إن مرحلة جديدة في تطور القصيدة العربية تجد مكانها على صفحات مجلة **شعر** التي دأبت على القول، دائماً، إنها تتحرى المستوى الفني والجمالي لما تنشره من نصوص، وإنها «لا نزعة سياسية أو حزبية لها[٣]». وهكذا كانت **شعر** طريقاً مختلفاً كانت تحاول أن تقود تياراً في حداثة القصيدة العربية يقوم على الرؤيا، والتجريب، والمغامرة، واستيحاء التجربة الفردية، دون اندغام في المجموع[٤]. ولقد كان من المبادىء التي أكدت عليها هذه المجلة منذ تأسيسها: «التركيز على إبراز النزعة الفردية والتخلي عن فكرة الالتزام بالمعنى السائد آنذاك والاهتمام بالقيم الجمالية للشعر بغض النظر عما يتضمنه من اتجاهات فكرية[٥]».

كانت **شعر** تجمعاً لحشد كبير من شعراء القصيدة الحديثة ونقادها: أدونيس ويوسف الخال وأنسي الحاج وفؤاد رفقه وعصام محفوظ وجبرا إبراهيم جبرا ورياض نجيب **الريّس** وخالدة سعيد ومحمد الماغوط وشوقي أبو شقرا وكمال خير بك وأسعد رزوق. . . **وكانت الآداب طريقاً ليس لنشر الشعر الحديث ونقده على** صفحاتها فقط بل من خلال منشوراتها من المجاميع الشعرية، وقد أدت **شعر** هذا الدور أيضاً بحماسة شديدة وتخطيط وتركيز واضحين: نشرت الكثير من الدواوين الشعرية الجديدة. وساهمت في الترويج للشعر الحديث ولقصيدة النثر بشكل خاص حتى جعلت منها نمطاً شائعاً في النشاط الشعري العربي. لقد كان الكثير من شعراء مجلة **شعر** ونقادها ومتابعيها يرون فيها حداً حاسماً بين مرحلتين في تطور القصيدة الحديثة. إن أدونيس، مثلاً، يقول: «كان الشعر السائد قبل مجلة شعر تقميشاً يؤالف ما بين عناصر موروثة بنوع من الصياغة أو يؤالف بين هذه وعناصر مكتسبة. . . . بعيداً عن مفهوم اللحظة الإبداعية التي تفجرها القوى الطالعة، قوى المستقبل. ومن هنا كشفت مجلة «شعر» بطلان السائد وأتاحت مجالاً للتفكير في إمكان نشوء آخر مغاير، أفضل وأغنى وأعمق تعبيراً»[٦].

إن الحديث عن دور المجلات الثقافية لابد أن يفضي بنا إلى الحديث عن الدور الذي لعبته مجلة **الكلمة** في العراق. لقد فتحت هذه المجلة المغايرة الباب واسعاً لريح جديدة، طرية، غامرة، عمت الحياة الثقافية في العراق، وأشعلت الحرائق في أكثر أجزاء الغابة برودة وخمولاً.

(٢) **شعر**، العدد ١ / ١٩٥٧، وراجع كذلك: د. علي الشرع؛ المصدر نفسه.

(٣) سامي مهدي: **أفق الحداثة وحداثة النمط، دراسة في حداثة مجلة «شعر» بيئة ومشروعاً ونموذجاً**. بغداد، ١٩٨٨، ص ٢١.

(٤) د. علي جعفر العلاق: «الشاعر العربي: حداثة الرؤيا، مجلة **الآداب** العدد ١٠ ـ ١٢ / ١٩٨٧، ص ٣٥.

(٥) د. علي الشرع، المصدر نفسه، ص ١٣.

(٦) المصدر السابق، ص ١٩.

استطاعت مجلة **الكلمة** أن تصبح محوراً فريداً من نوعه، نافذة لضوء جديد تماماً. كانت مجلة جريئة أشاعت في أدبنا روحاً مغايرة، وفي الخشب العتيق خضرة ريانة. كانت ولادة **الكلمة** في مدينة النجف، حيث يمتلىء النسيم برائحة الذهب، والكتب القديمة، والأولياء. واستطاعت أن تشيع، في جيل بأكمله، إحساساً جديداً بالحياة، هبة من الفوضى الجميلة، والجرأة على الثوابت في أساليب التعبير، والحساسية والرؤيا[٧]. واستطاع الجيل الجديد الذي التف حولها أن يدشن مرحلة جديدة في الكتابة شعراً ونثراً. لقد سُمي جيل **الكلمة** هذا بجيل الستينات، وهي تسمية أطلقت، أول ما أطلقت، في العراق كما أظن. كانت **الكلمة** عاصفة أدبية إندلعت من غرفة صغيرة يعوزها الترتيب، لكنها، في الحقيقة، تزدحم بالمواهب، والطموحات، والصعلكة.

وفي هذا السياق ذاته صدرت مجلة **الشعر ٦٩** التي كان يرأس تحريرها الشاعر سامي مهدي ويتولى سكرتارية التحرير فيها فاضل **العزاوي**. كانت هذه المجلة مشروعاً، شاباً، شديد الجرأة. ولقد أحدثت ضجة مدوية في الوسط الثقافي بسبب البيان الشعري الذي نشرته افتتاحية لها ومنهجاً تلتزم به. كان البيان الشعري قد حمل أسماء أربعة من الشعراء هم: فاضل **العزاوي** وسامي مهدي وخالد علي مصطفى وفوزي كريم. ومع ذلك فإن فاضل العزاوي يكاد يكون مسؤولاً عما في هذا البيان أفكاراً وصياغة.

كانت **الشعر ٦٩ وعداً** أكثر منها إنجازاً. وكانت الضجة التي رافقت صدورها قد غطت على الكثير مما أرادت أن تعبر عنه: لقد ووجهت بزوبعة مضادة نظراً لما حمله بيانها الشعري من أفكاره **كانت، في معظمها، غامضة، مغالية تبشر بكتابة شعرية** جديدة، تستمد من الحلم، أو فوضى الحواس، أو آلية الكتابة الكثير من عناصرها. وهكذا انطفأت هذه المجلة بعد أن أصدرت عددها الرابع مباشرة.

ومن الإنصاف تماماً أن نشير إلى الدور الذي نهضت به مجلة لم تكن تعني بالأدب عناية واسعة، بحكم طبيعتها الخاصة. لقد كانت مجلة **العاملون في النفط** في بداية الستينات مجالاً حيوياً لتجارب الكتابة الجديدة في القصة والشعر والنقد. وكان للمشرف عليها، الناقد والروائي جبرا إبراهيم جبرا أثر كبير في تشجيع الكتاب الشباب ودفعهم في طريق الكتابة الحديثة، وقد كانت تلك المجلة سباقة في اعتماد الصيغ المتطورة في علاقتها بكتابها، ومكافأتهم على ما يكتبون فيها.

إن الدور الذي لعبته مجلات عربية أخرى لا يمكن للباحث إلا أن يشير اليه بإحترام عميق. هل يمكننا أن ننسى ما قامت به مجلتا **الكاتب والطليعة المصريتان مثلاً؟ لقد كانت هاتان المجلتان** نموذجين حقيقيين للمجلة الثقافية والفكرية المؤثرة في سياق من

(٧) د. علي جعفر العلاق، المصدر نفسه.

التحليل الجديد والإنساني لفكرنا المعاصر وتراثنا العربي. وقد وقفتا تدافعان، ببسالة لا نظير لها عن قيم الحرية، والعدالة، والجمال، في الفكر والحياة رغم ما أحاط بهما من ظروف بالغة القسوة.

٥ ـ لا شك أن المجلة الثقافية لا تنبع من فراغ بارد، ولا تزدهر، أبداً، في سهل أجرد. إنها تشكل، دلالة ومستوى وإجراءات، جزءاً حيوياً من الثقافة السائدة. أي أن مستوى مجلة ما علامة على ما تتمتع به الحياة الثقافية من تماسك وإثارة، أو تفكك وخمول. ومن الطبيعي القول إن مجلاتنا العربية تصلح، إلى حد كبير، أن تكون شاهداً على مستوى ثقافتنا، أو على الأصح، مستويات هذه الثقافة التي تشكل إطاراً يضم تباينات عديدة في المستوى الثقافي وفي النظرة إلى الثقافة ذاتها.

للمجلات الثقافية متاعبها دون شك. وهي متاعب لا يمكن التهوين منها، لأنها تشكل، في مجموعها، مأزقاً لهذه المجلات وتجعل من أدائها عملها مغامرة محفوفة بالعراقيل. إن هذه المجلات، في واقع الأمر، تجسيد واضح الدلالة على ما يعانيه المبدعون والمثقفون العرب من شتات وتباين، وما تخضع له الثقافة العربية ذاتها من تصدعات تبتعد بها عن عمقها الضروري.

كيف يبدو، الآن، المناخ الثقافي الذي تسعى المجلة الثقافية إلى التأثير فيه، مع أنها، تتأثر به أيضاً؟ ولو وضعنا السؤال بصيغة أكثر تحديداً لقلنا: أيهما الأقدر على التأثير في الآخر، المجلة أو الواقع المحيط بها؟ أيهما الراجح، في الموازنة، رجحاناً ساحقاً؟

٦ ـ إن الحديث عما تعانيه مجلاتنا العربية لا بد أن يرتبط بذلك الشاغل الأعظم: أعني الأجواء السياسية التي تفعل فعلها، دائماً، في خلخلة الحياة الثقافية وعرقلة نموها وتجانسها الضرورين.

يمكن للمجلات الثقافية، بل ينبغي لها، أن تشكل، مجتمعة وعلى مستوى الوطن العربي، قنوات عميقة للتأثير. يمكنها أن تسهم، وبشكل فعال، في تنقية وجدان القارىء العربي، ومعاونته على بلورة **مواقفه** الجمالية والفكرية في الحياة، والثقافة، والأدب. لقد لعبت المتغيرات السياسية لعبتها في معظم الأنظمة العربية، حتى أصبح الخلاف العربي إحدى البديهيات أو الثوابت التي لا يمكن **زحزحتها، مما ساهم في التفريق بين أبناء الوطن الواحد. إن هذه** الخلافات وغيومها الجهمة كانت تحاول، دائماً، أن تتجمع تحت **سمائنا الواحدة. الأمر الذي يدعونا جميعاً، كتاباً ومفكرين ومسؤولين** عن النشر، إلى أن نعمل من أجل هدف أسمى: هو أن يظل الأدب والثقافة سماءنا المفتوحة أبداً، وأفقنا الذي يسمو على غيم السياسة العابر وكدرها المؤقت. وفي هذا السياق يتوجب على المجلة الثقافية ألا تتردد في خلخلة هذا الغيم السياسي، الذي يخلقه تباين الأنظمة في أحيان كثيرة. وأظن أن الطريق الأمثل لتحقيق ذلك هو أن تجسد، من خلال برنامجها الثقافي، نظرة شاملة إلى الأدب العربي، تسمو على ضغوط الثقافة المحلية. وأنا لا أدعو، هنا، إلى إهمال الجانب الوطني أو المحلي، في الثقافة أو الأدب. إن ما أسعى إليه هو أن تكون المجلة نشاطاً ثقافياً وإبداعياً مشتركاً، تفاعلاً يخلقه كتّاب عديدون، أنياً أو نشوة صاعدة تسهم في خلقها قلوب جمة، وعقول متعددة، تخلق رغم تمايزها، ضجة جميلة، متجانسة، تضيف ماء جديداً إلى النهر، **وموجة** متوثبة إلى انحداره.

إن بعض مجلاتنا الثقافية تلتف، أحياناً، بغلاف قطري صارم، فتبدو وكأنها تكريس لامع وأنيق للعزلة، مع أن الأدب العربي في **محصلته النهائية ما هو إلا تفاعل خصب بين روافده العربية جميعاً. كما** أن المجلة الثقافية، في حقيقتها مساحة تناغم واع، عميق، تسعى إلى خلقه مجموعة من المواهب، والأقلام، والذهنيات الخصبة.

٧ ـ إن المجلة، كما أشرنا قبل قليل، جزء من حيوية الجو الثقافي. وهي، أيضاً، جزء من خموله إذا كان مسطحاً ولا غنى فيه. تجمع المجلة والمرآة قرابة من نوع ما، شبه من نوع ما وليس الشبه كله. فالمجلة مرآة محايدة تعكس كل شيء بدقة قاتلة. ليست مياها من الفضة تعكس، عبر سطوعها الزئبقي الخاطف ما يقف في مواجهتها طيراً كان أم جثة أو غزالاً. أبداً، إنها مرآة نشيطة، شديدة المكر، بخيال حي، وذاكرة لا تُخدع، وقدرة على التركيب كبيرة. لذلك فإن المجلة الثقافية النشيطة لا بد لها، وهي تؤدي مهمتها من أن تختار ذلك الخيار الصعب: أن تسعى، من خلال ما تنشره، إلى أن تكون مندغمة في الحياة، فاعلة فيها من جهة، منفتحة على أغنى ما في هذه الحياة من جهة أخرى.

هل قامت مجلاتنا الثقافية بهذا الدور؟ وإلى أي حد؟

لا أشك لحظة واحدة في أن المصاعب والمعوقات التي واجهتها وتواجهها هذه المجلات ليست هينة أبداً، والطريق الذي يصل ما بين المجلات والهدف الذي تسعى إليه طريق **مليء** بالأحجار، والشظايا. ففي ظل ظروف اجتماعية وسياسية تعيشها أقطارنا العربية، هنا أو هناك، يصبح من الصعب على المجلة الثقافية أن تنهض بدورها بشكل فعال. لا بد لها، كي تكون مؤثرة بعمق، من هامش معقول من تحضر الفرد وتحضر المجتمع معاً. لا بد من مناخ اجتماعي وثقافي يتسع لحركتها في متابعة الظواهر والمتغيرات الثقافية متابعة حية جريئة، ولا يضيق باجتهادها الحر والصادق في الحكم على ما تتصدى له من ظواهر وأسماء وإنجازات صار لها، بحكم التسليم الخاطىء بها والمحاباة الاجتماعية صفة الثبات، أو طبيعة الرموز المحرمة. لكي تزدهر مجلة ثقافية ما ينبغي أن تجد مناخاً من الرعاية للثقافة **والمثقفين**، واحتراماً للقائمين على المجلات أنفسهم. لقد قيل مرة أن خمسة وعشرين برلمانياً «لا يساوون في النفوذ وقوة التأثير محرراً واحداً» في إحدى المجلات البريطانية المؤثرة.

إن الواقع الذي تعيشه معظم مجلاتنا الثقافية يكشف عن حقيقة صارخة؛ ففي هذا الواقع كثير من المعايير الذوقية، وصيغ التعبير وأشكاله التي قد لا تتيح إلا هامشاً متواضعاً لازدهار مجلات ثقافية رفيعة المستوى: تؤسس لقيم في الذوق، وأنماط من الرؤيا وأشكال الإفصاح عنها. وهذا الواقع يقدم، لمن يتأمله، جملة من المؤشرات

التي يجدر الوقوف عندها: تبدو المجلات الثقافية، في الوطن العربي، وكأنها تشق طريقها في جغرافية شديدة الوعورة؛ فحياتنا، في هذا البلد أو ذاك، لا تخلو من أمراض اجتماعية مستشرية: الضيق بالرأي الآخر، المهالأة، والكذب، والتحجر. إن هذه الظواهر الرمادية المؤلمة قد تنعكس، مع صيغ التعبير عنها، على صفحات المجلة، أي أنها تنتقل بثقلها كله من حياتنا الواقعية، وسياجها الجغرافي والزماني لتكتسب، من خلال المجلة وحركتها الحرة نسبياً، تأثيراً أشد. إن المجلة التي ترضخ لهذا الركام من العادات المتخلفة ستكون، عند ذاك، جسراً واطئاً لا لتمرير الضوء، وإشاعة لجمال، وتعميق الحياة وتوسيعها بل لترويج الرماد، والنميمة الثقافية، والصلف، والفراغ. على المجلة، إذن، أن تعي هذا المنزلق وتحذر منه، لتظل رئة نظيفة، وحنجرة طلقة للتعبير والجدل الحي، الذي يتسع لتباين وجهات النظر، والتعبير عن الخلاف الأدبي بلغة تبني، وتثري، وتؤسس.

٨ ـ والمجلات الثقافية لا تعاني من هذا الرمادي المجزأ والاجتهادات السياسية والإيديولوجية في هذا البلد أو ذاك، بل إن معاناتها تتجاوز ذلك كله إلى معاناة من نمط آخر، تفوق في خطورتها قضية التجزئة ذاتها.

إن المجلة قد لا تستطيع، في أحيان كثيرة، العبور من بلد عربي إلى بلد آخر. قد تعجز، في الغالب، عن القفز خارج السياج لتندغم في جزء آخر من هوائنا العربي الواحد، أو التفاعل مع ما يدّخره من إمكانيات ثقافية تشكل، في مجموعها، كلاً ثقافياً عربياً فاعلاً. قد يحدث ذلك. ولا شك أن لدى كل واحد منا أكثر من مثال على هذه الحالة غير السارة. غير أن ما أريد الإشارة إليه، هنا شيء آخر تماماً: إنه الرقابة الداخلية. وهذا النمط من الرقابة يفوق في خطره أحياناً تلك الأنماط الرسمية من الرقابة التي تتبع في أنحاء الوطن العربي. ويصل تأثير هذه الرقابة إلى مناطق في وعي الكاتب قد لا تطالها الرقابة الرسمية ذاتها.

إن الكاتب حين يمتثل، فترة طويلة، لرقابة ما. فإن هذا الامتثال يمتد تدريجياً، ليشمل الجوهر من كتاباته. ويتسع إحساسه بالمناطق الخطرة التي يتوجب عليه تجنبها ليصبح هاجساً دائماً لا يتزحزح. وحتى حين تأخذ الرقابة الرسمية، لهذا السبب أو ذاك، في التخفيف من كثافتها فإن الكاتب نفسه، وهو ضحيتها الأولى، يأخذ عنها إكمال مهمتها باندفاع طوعي، داخلي، وبهيمنة مدمرة. أي أن الكاتب يغدو، إلى حد ما، جزءاً من وعي الرقابة. يتخذ هيئة الرقيب والكاتب معاً دون أن يكون مطالباً من قبل الدولة بذلك أي أنه يتشكل، بعد سنوات من الخضوع للرقابة، وفق مستلزماتها، وامتثالاً لعلاماتها المنتشرة في ممرات الذهن، والقلب، والروح. وحين يصل الكاتب، في مراقبة ذاته، إلى هذا الحد فإنه يأخذ بالتهيب من ملامسة الحياة وموضوعاتها الملتهبة. وقد يدفعه ذلك إلى أن يرتقي التل الآمن: يرقب من بعيد مشهد الحياة وهي تحتدم، أو **تهدأ**، تنمو أو تتلاشى.

وحين ينمو عدد الكتاب المذعورين من أعماقهم الداخلية، حين يقوم كل منهم بقمع الطفل الكامن في ثنايا روحه مخافة أن يرى **الأمبراطور** عارياً، فإن الحياة، عند ذاك لا تحظى من اهتمامهم إلا بهامش صغير، لأن معظم ما تحفل به من حركة أو يأس، من تصدع أو بهجة يكون قابعاً في القاع بينما يكون هؤلاء الكتاب المذعورون منشغلين بالتعبير عن سطح الأشياء وبريقها الظاهري، حين يصبح جل ما يعبرون عنه محسوباً على وهم الحياة لا الحياة ذاتها.

٩ ـ لقد دفع هذا الوضع ببعض الكتاب إلى محاولة الإفلات من هذا الشرك، والتمرد على تلك الكمائن المخبأة في كل شيء: في العشب والريح وشهوة الكتابة. واختار البعض منهم أن يكون تمرده قفزة بعيدة، هجرة إلى خارج الحقل العربي، وبعيداً عما فيه من ذعر، وأحلام، ومشاريع إبداعية. لذلك كان صدور بعض المجلات الثقافية العربية، خارج الوطن العربي تعبيراً عن إحساس بالضيق، ومحاولة للإبقاء على نار الكتابة يقظة أطول فترة ممكنة، بعيداً عن قيود الرقابة بنوعيها؛ ولكن: هل كان ذلك حلاً لمشكلة الحرية في الإبداع والفكر؟ هل يمكن للمفكر أو المبدع أن يجد حريته كاملة خارج وطنه؟ خارج لغته؟ خارج محيطه الثقافي، والنفسي، والحضاري، والاجتماعي؟ أعني خارج ذاته؟

إن الحرية هي القضية الكبرى التي **يظل** كل شيء قاصراً إذا لم يتم تحقيقها. لا المجلات الثقافية ولا الصحف السياسية، لا المسرح ولا السينما، لا الإبداع ولا النقد، لا الندوات ولا المهرجانات، لا **الإذاعة** ولا التلفزيون، لا المؤتمرات ولا قاعات الدرس الأكاديمي، كل شيء سيظل خاملاً، وزائفاً، وحزيناً في غياب المناخ الذي يحتضن الفكر والإبداع ويغذيهما بالخضرة والحرية. في المناخ الحر **يزدهر كل شيء؛ الإبداع والبحث، الحوار والحلم، وطاقة الروح** ويقظة الجسد، المجلة والكتاب. إنها الحرية وسحرها الخارق، العجيب، حرية أن تبدع وتنتقد، تتأثر وتؤثر، وتنفعل وتتفاعل بضمير يقظ، وعقل مترع بالحيوية.

ولو تأملنا تجربة مجلاتنا الصادرة خارج الوطن العربي لرأينا أنها، في العموم، تواجه مشكلة جدية تعرقل وصولها إلى من تريد مخاطبتهم. لقد ظلت، وربما ستظل، كما يبدو، إلى فترة ليست قصيرة احتفالاً في كهف، أو تفجّعاً على أوطان غائبة: أوطان من ورق، ولغة، وأوهام. إن هذه المجلات تبقى، رغم عمق البعض منها، شاهداً على **اختيار** الكاتب أبسط الحلول، وأقربها إليه: الاختفاء وراء غربة جغرافية سوداء لا يترشح عنها إلا القليل من الأنين، والقليل من الأحلام أيضاً. لقد سئل، ذات يوم، الكاتب المسرحي التشيكي ورئيس تشكوسلوفاكيا الحالي هافل لماذا فضل البقاء في بلده، فأجاب: لقد أريد لي فعلاً أن أذهب إلى أمريكا للدراسة، لكنني لو كنت قبلت الهجرة بعيداً عن وطني فمن أين لي أن أسمع هذا الأنين التشيكي الجارح؟

لذلك، فإن هجرة هذه المجلات قد أبعدها عن ذلك الأنين وذلك الحلم الذي يتدفأ على ناره الملايين من الناس. وهي حين تحاول الوصول إلى قارئها ستواجه، مرة ثانية، المعضلة التي أرادت تجنبها، ستواجه مرة أخرى حاجز التجزئة، وحاجز الرقابة وبضراوة أشد ربما.

١٠ ـ والمجلات الثقافية ليست في منأى عن المنافسين الجدد، أعني ما أنتجته وتنتجه، باستمرار، حضارة التقنية الآن. وكما وجد الأدب نفسه، شعراً وروايةً، في منافسة غير عادلة مع أنماط جديدة في التوصيل والإثارة فإن المجلة الثقافية العربية غدت، هي الأخرى، في مهب هذه الريح العاصفة التي تطلقها الحياة الحديثة، وتقنيات الإعلام ووسائله الشديدة الفاعلية. وإذا كان الشعر أكبر الخاسرين وأكثرهم براءة فإن المجلة الثقافية قد دُفعتْ حتى آخر الجدار، حتى الحافة التي تطل على الريح أو الهاوية. وإذا كان الكتاب، ثقافة وإبداعاً، قد تعرض لمزاحمة ضارية من قبل وسائل الإعلام كالسينما، والتلفزيون، والفيديو، والأغاني الهابطة، ومطبوعات المتع اليسيرة، فقد كان للمجلة الثقافية نصيبها من هذه الخسائر.

إن مجتمعنا العربي، عموماً، ما يزال يصغي بجسده أكثر من روحه إلى تلك المباهج الحسية السهلة وهي تكتسح تفاصيل حياته اليومية، وتخاطب تكوينه المادي مخاطبة نفعية، غرائزية، ملحة. ووسط هذا الضجيج كله لا يستيقظ غير الجسد، ولا تنمو غير حاجاته المحدودة الطارئة حتى تكوّن جداراً أصم لا يدع مجالاً للروح كي تفصح عن نزوعها الأصيل إلى الثقافة الرفيعة والإبداع الراقي. ومع أن المجلات الثقافية الراهنة تفوق، في إمكاناتها المادية والتقنية جيلاً من المجلات السابقة وتتمتع، في الغالب، بمستوى طباعي يصل حد الترف أحياناً، إلا أن الجيل السابق من المجلات الثقافية كان أسعد حظاً من مجلاتنا الآن كما يبدو. لقد كان لتلك المجلات جمهورها المتابع الذي كان حلمه أكبر من جوعه، وكانت حاجته إلى المعرفة أسمى من حاجته إلى الرغيف. كان جمهوراً تواقاً إلى الثقافة، يتبادل الكتاب أو المجلة كما يتبادل المادة المهربة، بسرّية، وفرح، وتقوى. أما كتّاب تلك المجلات فقد كان دافعهم إلى الكتابة ثقافياً، إبداعياً محضاً، في الغالب؛ إذ لم يكن للمردود المادي أي دور في ذلك، لقد كانت مكافأة أي منهم، آنذاك، هي أن يرى نصه منشوراً: يصل إلى الناس، ويحظى بعنايتهم. ويبدو أيضاً أن تلك المجلات كانت أسعد حظاً من ناحية أخرى، كانت لها نشوة إنجازها الخاص بالنسبة للأجيال الأدبية الشابة: تساهم في الكشف عن الموهوبين منهم، وتسعى إلى التعريف بهم، تمهد الطريق لهم وتبشر بكتاباتهم الجديدة. وقد رأينا ما قامت به مجلتا **الآداب** و**شعر** مثلاً. فهما، على تباعد ما بينهما في الأهداف والنوايا والرؤيا قد نهضتا بعبء كبير في فتح الطريق أمام أجيال ناهضة من الأدباء والمبدعين.

هل لمجلاتنا، الآن، أن تؤدي دوراً مماثلاً؟ أعني هل تستطيع هذه المجلات أن تقدم العون، كما كان الأمر في الماضي القريب، إلى جيل أدبي يبحث عن عون أو متكأ؟

لا أتردد في القول إن هذه المجلات قد فقدت أو كادت جزءاً حيوياً من هذا الدور؛ إن الشباب، من الكتاب لا يشكون، الآن، من قلة وسائل النشر، بل يشكون، وتلك مفارقة عجيبة ربما، من كثرتها، وسهولة الحصول عليها أيضاً. إن معظم أجهزة الإعلام وقنواته تفتح أبوابها وشبابيكها لريح جديدة يقودها الشباب، لتأوهاتهم وجدلهم، لتشبّثهم بالحياة وتمردهم عليها في آن معاً. هم محظوظون دون شك. غير أنهم جيل مُهَّد له الدرب بطريقة مزعجة، وكأنه جيل دون أخطاء، جيل لم يترك له أن يجرب، ويخطىء، ويتعلم، أن يقرأ بقسوة، وأن يحاول لا الكتابة فقط بل تمزيق ما يكتب. والشاب الذي يمتلك الشجاعة التي يتحدى بها زهوه بما يكتب، وينتصر بها على فجاجة محاولاته الأولى وعثراتها إنما هو شاب موهوب موهبة حقيقية.

من منا لا يذكر أول مجلة قرأها؟ أول جريدة بعث إليها بقصيدته أو قصته أو مقالته الأولى؟ من منا لا يتذكر، بحنين خاص، أول مجلة نشرت له بعضاً من محاولاته المبكرة؟ تجارب كثيرة، ذكريات عذبة وقاسية أيضاً. سهر عظيم. وعذاب له قداسة خاصة، مكابدة هي أقرب إلى مكابدة النساك أو العشاق. من أجل أن تظهر **أسماؤنا** على صفحات تلك المجلات التي كنا نحلم بالنشر فيها: مثل **الآداب والأديب وشعر**. . . **كان كل واحد منا مزحوماً بإحساس لا يرحم**: إنه ما يزال خاماً، أو مبتدئاً حتى تفتح له إحدى تلك المجلات صفحاتها العصية، وحين يحدث ذلك وبعد مشقة طويلة فإن احساسه بالرضا لا ينتهي عند حد.

كيف لنا أن نخلق لمجلاتنا قراء على غرارنا آنذاك؟ كيف نضع لقراءنا مجلات كتلك التي حبونا على صفحاتها، وتعلمنا منها كيف نكتب ونبدع ونناقش؟ كيف يمكننا أن نفعل ذلك كله؟

لا شك أن حشداً مهماً من مجلات هذه المرحلة يصدر عن مؤسسات رسمية في الوطن العربي مثل وزارات الإعلام، واتحادات الكتاب الإقليمية. وقد أدت هذه المجلات، دون شك، دوراً كبيراً في نشر الأدب والثقافة، وتنشيط الحياة الإبداعية في الأقطار التي تصدر فيها. ومع ذلك فإن هذه المجلات قد شكلت، بمعنى من المعاني، تحدياً لمجلات أخرى تصدر بمبادرات فردية وجهد شخصي. لذلك فإنها لا تستطيع أن تجاري تلك المجلات الرسمية التي يقف وراءها جهد الدولة، وتخطيطها، وثقلها المالي والإداري. إن كل ذلك سينعكس، حتماً، على مستوى هذه المجلات طباعة وإخراجاً وتمويلاً. لذلك فهي لا تجد الطريق مفتوحاً أمامها دائماً. إن مأزقها كبير فيما أظن. فمن أين لها بقراء ذلك الزمان الذي مضى؟ قراء يحركهم الحلم لا الجوع، والثقافة لا الرغيف. ومن أين لتلك المجلات، أيضاً، بذلك النمط من الكتاب الذين لا يجدون نشوتهم الكبرى في مكافأة سخية يتسلمونها، بل تغدو نصوصهم منشورة،

مصدر نشوة لا تضاهى؟ أعتقد أن نمطاً من القراء والكتّاب كهذا قد أضحى نادراً ندرة شديدة. ربما إن مكاتب التحرير، في معظم المجلات الثقافية، تعج بالكتابات الكثيرة. غير أن معظمها لا يلبي حاجة معرفية حقة، ولا يغذي إحساساً بالجمال والإبداع. بل هي كتابات تدفع إليها العادة وشهوة الظهور. كتابات تستهلك الكثير من الورق والوقت ولكنها تظل، في الغالب كلاماً لا يمس وتراً حقيقياً في الروح، ولا يوقظ جرحاً من جراحاتها المرهفة. أي أنها كتابات تقع على هامش الحياة، على ما يتساقط من غبار مشاكلها الحقيقية.

١١ ـ من المشاكل التي تواجه بعض مجلاتنا الثقافية صلة الجامعات بالحياة عامة وبالحياة الثقافية بشكل خاص. لقد أصدرت بعض هذه الجامعات مجلات خاصة بها. وهذه المجلات تبدو، أحياناً، وكأنها تجسيد لعزلة بعض الجامعات عن حياتنا الراهنة. إنها، في معظمها، أكداس من الورق الباهر، يضطر بعض العقليات الأكاديمية إلى النشر فيها سعياً وراء ترقية علمية، أو مردود مادي.

إن الأستاذ الجامعي حين يلجأ إلى هذه المجلات فإنه يدير ظهره إلى الحياة الثقافية وصخبها الواسع. قد يظفر، جراء نشره في هذه المجلة الأكاديمية أو تلك، ببحث يكافأ عنه أو يحتسب له للترقية وهما أمران يحتاجهما الأستاذ الجامعي حاجة حقيقية وهو يدور في دوامة التدريس، وسياقه المنهك، وفي أجواء لا يزدهر فيها البحث ازدهاراً حقيقياً. وفي هذا الجو لا يغامر هذا الأستاذ ببحثه لينشر في المجلات الثقافية خارج الجامعة لأنها مجلات لا تعتمد من قبل الجامعات، غالباً، لأغراض الترقية العلمية، فالكثير من جامعاتنا ما تزال مترددة في الانفتاح على الأدب الحديث وقضاياه وإشكالاته. وبدل أن تترك هذه الجامعات لأساتذتها المناخ الملائم لممارسة تأثيرهم في قاعات الدرس وغرف المحاضرات فقط بل في الحياة الثقافية الواسعة. بدل أن تفعل ذلك فإنها أثقلت عليهم بتدريس مقررات لا تقع في الصميم من الأدب الحديث، وأنهكتهم، أيضاً، بالإشراف على أطروحات حول موضوعات خاملة، وظواهر لادفء ولا عمق فيها.

إن بعض جامعاتنا تتجه اتجاهاً مغايراً لاتجاه الحياة الجديدة التي تدق على شبابيكنا بإلحاح لا يمكن تجاهله. إنها نقيض للجامعات في البلدان الغربية، مثلاً، التي يكون أفضل أساتذتها هم أفضل النقاد في بلدانهم وأشدهم تأثيراً. لذلك كانت تلك الجامعات مكاناً رحباً لتطور الكثير من المجلات التي صدرت عنها. في بريطانيا، مثلاً، صدرت مجلات فصلية عديدة كان وراء صدورها طبقة جامعية مثقفة «تعمل من أجل احتضان المواهب وضمان حرية الفكر داخل الجامعات البريطانية»[٨] وقد ساهمت هذه المجلات في احتضان فن

(٨) د. عبد الستار جواد: «المجلات الثقافية: دراسة مقارنة»، مجلة **الأديب المعاصر**، العدد ٤٠ / ١٩٨٩ ص ٦١.

«المقالة **الأدبية**» التي «تناسب القرن التاسع عشر والقارىء الجديد والمثقف الذي ينتمي إلى الطبقة الوسطى، والذي يتطلع إلى دليل للآداب والثقافة في عصر شهد التقدم العلمي والشك الديني والأسلوب الديمقراطي»[٩]. ولا يسع المرء الا أن يتمنى أن يكون لمجلاتنا الثقافية هذا التأثير ولمجلاتنا الأكاديمية، أيضاً، فاعلية أعمق، تعيد للجامعة صلتها بالحياة وللأستاذ الجامعي ارتباطه الحار بتيار الثقافة اليومي، وحركتها المعبرة.

١٢ ـ في العراق، ربما، يصدر أكبر عدد من المجلات الثقافية، وقد أتيح لي منذ عام ١٩٨٤ أن أعمل رئيساً لتحرير إحدى هذه المجلات، أعني مجلة **الأقلام** وهي أقدمها عمراً، وأكثرها عناية بالأدب الحديث تحديداً. ولم تكن أي من هذه المجلات تعمل في معزل عن الأخرى. ليس لأيّ منها أن تخطط في عزلة عما تسعى إلى تحقيقه المجلة المجاورة لها، أي أن اهتمام مجلة ما بفرع من الأدب أو الثقافة لا يقف بها بعيداً تماماً عن اهتمام المجلات الاخرى. لكنه يضمن لها، في الوقت ذاته، حقلها المحدد، وخضرتها الخاصة بها. لقد أريد لكل واحدة من هذه المجلات أن تعنى بحقل خاص يميزها عن سواها، لكنه لا ينفصل كلية عن الحقول المجاورة. بل يضيف إلى خضرتها الثقافية طراوة جديدة، وإلى نسيمها العميق الهادىء عمقاً آخر.

كانت مجلة **الثقافة الاجنبية** وما تزال تهتم اهتماماً خاصاً بالثقافة المترجمة. أما مجلة **آفاق عربية** فلم يكن لسواها أن يهتم اهتمامها بالدراسات الفكرية والسياسية. وحين كانت مجلة **المورد** قد سعت منذ تأسيسها إلى التركيز على تراثنا العربي فان مجلة **التراث الشعبي** قد اتجهت إلى العناية بالفولكور ودراساته عناية خاصة. وكان للشباب حصتهم الواضحة من اهتمام هذه المجلات لذلك فإن **الطليعة الادبية** لم تكن إلا استجابة لهذه الحاجة. أما مجلة **علوم** فقد كانت مساحة للثقافة العلمية وما يطرأ عليها من جديد. وإذا استثنينا مجلة **أسفار** التي تصدر عن منتدى الأدباء الشباب، ومجلة **الأديب المعاصر** التي يصدرها الاتحاد العام للأدباء والكتاب، فإن المجلات المتبقية كلها تصدر عن مؤسسة واحدة، هي دار الشؤون الثقافية، المرتبطة بوزارة الثقافة والإعلام.

١٣ ـ حاولنا، في مجلة **الأقلام** أن تكون لنا وجهتنا الخاصة. أي موقفنا الخاص من قضايا الحداثة والتراث معاً. لم نكن نسمح لأنفسنا أن نقف إزاء أي منهما موقف الافتتان الصاخب المتعجل.

أردنا لـ **الأقلام** أن تعي دائماً واقعنا الثقافي والحضاري سعياً إلى التعبير عنه تعبيراً يكون الدافع إليه وعي التجديد لا لذة الإثارة، والاستجابة لحاجتنا الجمالية والفكرية لا القفز عليها. إن التجديد يظل، مهما تشعبت التعريفات وتعددت، لحظة من لحظات اللقاء الحي، بين ماضي المبدع وعصره، بين تراثه القريب والبعيد من

(٩) المصدر نفسه.

جهة، وجديد العالم من جهة أخرى. دون افتتان بالأول يصل حد العبودية له، أو هوس بالثاني يصبح تبعيةً له وتلاشياً فيه. كنا نعي من تجربة الأجيال التي سبقتنا من المجلات الثقافية ان يكون لهذه المجلة خطها الخاص بها: لا هوس بالجديد لذاته، ولا عبادة للتراث بل وعي به، واستكشاف لمكنونه الروحي والوجداني. وكنا ندرك أن المجلات الثقافية العربية عامة كانت لا تخرج كثيراً عن الاتجاهات التالية:

ـ كان البعض منها يصدر دون أن يثير انتباه أحد، أو يستفز حفيظته. ورغم صدورها لفترة طويلة فإنها تظل، بمعنى من المعاني، غائبة، لا تأثير لها، مسطحة، لامعة، عديمة الجدوى. وهي، أخيراً، عبارة عن ورق نراه لكنه يفتقر، غالباً، إلى ثراء العقل وجاذبية الروح.

ـ ثمة مجلات من نمط آخر، لا تنقصها المادة الثقافية العميقة ربما، لكن ما تفتقده شيء مختلف. إنه ذلك السياق الذي يوحد بين موضوعاتها جميعاً، ويمنح مادتها الثقافية نبرة تميزها عن سواها. فأنت قد تلتقي على صفحاتها بأحمد فارس الشدياق ومحمد الماغوط في تجاور غريب. وقد ترى أدونيس بنبرته الفجائية الغامضة وصفي الدين الحلي جنباً إلى جنب دونما مناخ رؤيوي يجعل لهذا التزواج دلالة ما.

لقد سعينا في **الأقلام**، ما وسعنا الجهد، إلى أن نبتعد عن هذا النمط من المجلات الثقافية، عن المجلة / السلّة التي تشتمل على كوكتيل ثقافي متنافر، موضوعات متناقضة، واتجاهات لا رابط بينها، وكتاب لا ينتظمهم طريق رؤيوي واحد، أو مناخ **إبداعي** متجانس. وفي الوقت الذي أكملت فيه **الأقلام** ربع قرن من مسيرتها لا بد أن تبرز في الذهن حقيقة كبيرة هي أن هذه المجلة ما كان لها أن تعمر كل هذه السنوات لو كانت تحيا خارج حقائق الأدب والحياة، لو كانت قد أدارت ظهرها إلى هذا العصر وغاباته المشتعلة. وما كان لها أن تستمر أيضاً لو أنها أغمضت عينيها عن ذلك الضوء الذي يندلع من تراثنا الجليل الآسر.

لقد انطفأت بعض المجلات لدينا دون أن تعمر طويلاً؛ فبعد أن تنبثق مثل نيزك، ساطع، مفاجيء سرعان ما تتناثر شظاياها تاركة وراءها شيئاً من الجمر، وكثيراً من الرماد، والوعود التي لم تنجز، والمشاريع، التي ظلت **أحلاماً** عابرة. حقاً لقد انطفأت تلك المجلات الثقافية لأسباب عميقة، وظروف باطشة. ربما لأنها واجهت جداراً من الثوابت: ثوابت الذوق، ثوابت التقاليد الأدبية والاجتماعية. لذلك فهي لم تستطع، آنذاك، أن تخترق ذلك الجدار الجهم، المعادي بضوئها الخاطف الصغير. لقد كانت، في مأزقها ذاك، كمن يناطح أفقاً من الصخور الجارحة بقرون من ضوء وورد.

إن مجلات كتلك لم تكن لتحظى بحياة أطول؛ فقد وضعت في خطتها اقتحام الذوق السائد، وأشكال التعبير الراسخة. أرادت أن تصدم، وتثير، وتحيّر، مع أنها حاولت أن تومىء إلى بديل لما هو قائم في بنية الحياة وفي صيغ التعبير عنها. لذلك ظلت تلك **المجلات، باستمرار، دعوة إلى زحزحة ما هو كائن، إبداعاً ومؤسسات.** غير أن هذه الدعوة كان يرافقها، أحياناً، الرغبة في الإثارة والإدهاش لذاتها دون أن تكرس نفسها، فقط، للاستجابة الداعية لما هو ملحّ وملتهب من حياتنا الروحية والجمالية والفكرية.

١٤ ـ في غمرة المجلات الثقافية العربية في مطلع الستينات، والتي كانت تحظى غالباً، بتوزيع يغطي أجزاء واسعة من هذا الوطن المجزأ صدرت مجلة **الأقلام** مجلة حية، مترددة. هكذا كانت في بدء ولادتها: تأخذ من كل حقل غصناً، أو رائحة، أو نسيماً. وكان يسوغ ذلك كله اجتهاد عام لا يدخل إلى الجوهري من موضوعة الحداثة في الإبداع، والفكر، والحياة، ولا يلمس جمرة الجدل الساخن حولها. أريد لها، في الواقع، أن تبحث في العموم والمشترك الذي يوفق، ويصالح، ويرمم. وكان ذلك يحدث تحت عنوان صغير يؤكد على أنها مجلة ثقافية عامة.

ومنذ السبعينات انصرفت **الأقلام** إلى العناية بالأدب الحديث عناية خاصة. وكان من أهم ما تميزت به هذه المجلة منهجها الواضح في النظر إلى الأدب العربي باعتباره تجسيداً لوحدة روحية، وجدانية، وإبداعية. وقد عبرت المجلة عن هذا المنحى بصيغة لا أظن أن مجلة عربية أخرى قد اتبعتها. لقد حاولنا، باستمرار، ان نكرس أعداداً خاصة للعناية بالأدب العربي في هذا القطر او ذاك، فأصدرنا **الأعداد** والملفات التي تتناول الأدب الحديث، أو ظواهر محددة منه، في أقطار عربية عديدة، منها فلسطين والأردن والمغرب والبحرين واليمن والسعودية وتونس.

ولم يقف **اهتمام** المجلة بالأدب العربي عند هذا الحد. بل سعت دائماً إلى أن تكون خطتها السنوية مرآة واضحة للجهد **الإبداعي** العربي في تفاعله، وتنوعه، وشموله. إن نظرة متأملة لأعدادها الخاصة، وأعدادها الاعتيادية ـ أيضاً ـ تكشف عن هذا التفاعل والشمول اللذين لم يكونا، أبداً، ناتجين عن صدفة محض. بل كان وراءهما التخطيط والوعي اللذان يريان أن الأدب العربي، رغم تنوعه وخصائصه المحلية هنا أو هناك، يظل في محصلته النهائية، أدباً واحداً، يزيده التنوع عمقاً وتماسكاً. ويسعى، في النهاية، إلى أن يكون تعبيراً حاراً، شديد الحيوية عن حلم **الإنسان** العربي أو يأسه، عن حزنه أو مباهجه. ودأبت **الأقلام**، إضافة إلى ذلك، على أن يكون لها مراسلوها الذين يقدمون للقارىء في كل عدد جزءاً من حرارة المشهد الثقافي والأدبي في هذا القطر أو ذاك، من أجل مشهد كلي يتشكل من تفاعل هذه التقارير والرسائل الثقافية المقبلة من عواصم عربية عديدة ونحن حين نجلس لنعد لعدد جديد من المجلة فإننا لا نحس أنفسنا في عزلة عن جهود المبدعين والمثقفين العرب. لقد بات الإسهام العربي، إبداعاً ونقداً، أحد الثوابت في

كل عدد من **الاقلام** وهو امر نحرص على عدم الإخلال به. وحين يحدث شيء من ذلك، وهذا افتراض محض، فإننا نقف إزاءه وكأنه خرق فاضح لقاعدة نجلها أو عرف لا نملك أن نتخطاه. وبصراحة **أتمنى ألا تحسب صلفاً أو ادعاء، كنا نتمنى أن يكون لكل مجلة عربية خط مماثل، في إطاره العام على الأقل، ينظر إلى الأدب العربي، في** أقطارنا المختلفة، في سياق ترابطه الخصب حيث يلتحم النظري بالإجرائي، والفلسفي بالتطبيقي معاً.

ولم نكن، في مسعانا هذا، ننطلق من حاجة صحفية مجردة، تسدّ فراغاً قد يبدو العدد معه قاصراً، أو مشوهاً، أو فاتراً. لا. لم يكن الجانب العلمي أو الفني هو الحاضر في اندفاعنا العميق إلى الاحتفاء الشامل بإبداعنا العربي بكليته. بل كنا في هذا الاندفاع **نستجيب، بوعي ومحبة صادقين إلى حقيقة راسخة: إن أدبنا العربي، في أقطارنا المختلفة، نهر واحد تتشكل، عبر تموجه وعنفه وتفاوته صورة صافية لوجدان هذه الأمة، وفكرها، وخيالها الحيوي.**

١٥ ـ قبل أربعة أعوام تماماً أتيح لي أن أقف، في بغداد، موقفاً مماثلاً لموقفي الآن بينكم. كان ذلك في مؤتمر للأدباء المعنيين بالمجلات الثقافية في الخليج. ولم يكن ذلك المؤتمر إلا كشفاً لنزوع أصيل لدى المساهمين فيه: أن تكون المجلات الثقافية عاملاً من عوامل التلاحم الوجداني والثقافي بين أبناء الوطن الواحد، هذا الوطن الغني بالشعر، والنفط، والمشاحنات. وها نحن، اليوم، نجتمع لنناقش الموضوع ذاته ولكن بشمولية أكبر. ألا يصلح هذا التطور مؤشراً على أن إحساسنا بأهمية المجلة الثقافية أخذ، يوماً بعد آخر، يزداد عمقاً وسعة.

إذا أردنا، حقاً، أن يكون تأثير مجلاتنا الثقافية أكثر عمقاً فعلينا أن نسعى في هذا الاتجاه، فالزمن وحده ليس كفيلاً دائماً بتذليل العقبات وتخطي العراقيل. قد ينسينا قصة حب فاشلة، أو إساءة صديق ما لكنه لا يفعل كل شيء دون أن يكون لجهدنا دور في ذلك.

إن الأعداد الخاصة، واعتماد شبكة من المراسلين في العواصم العربية، وتحقيق التفاعل العربي في ما تنشره مجلاتنا من خلال خطة مدروسة، إن كل ذلك يشكل بداية طيبة لإنجاز ما نريد: التعريف بالأدب العربي ورصد تياراته وموضوعاته المهيمنة من جهة، والإسهام في تعميق الوشائج والصلات بين أقطارنا إبداعياً وثقافياً من جهة أخرى. ولا شك أن تشكيل رابطة للمجلات الثقافية، وهو ما سبق لي أن اقترحت في المؤتمر السابق، سيكون أمراً بالغ الأهمية: يعاون في وضع خطط للنشر الثقافي والأدبي ويشرف على التنسيق فيما بين المجلات الثقافية بما يضمن لها التكامل والتفاعل وتحديد الأولويات. ومن **الضروري** أن نسعى إلى أن يكون لهذه المجلات ندوة سنوية تعقد في الأقطار الأعضاء في الرابطة المقترحة مناوبة، وتخصص لموضوع يتصل بما تُعنى به هذه المجلات وما يشكل محور اهتمامها. كما تناقش فيها ما تواجهه المجلات من معضلات أو عوائق. ويكون من مهمة هذه الرابطة أيضاً الإشراف على تبادل الخبرات بين المجلات في مجالات التحرير، والأرشيف، والإخراج والتصميم، وتبادل الزيارات، وفتح الدورات التدريبية أيضاً.

لا شك أنكم تدركون جميعاً أن المجلة الثقافية لا ترتقي إلا في مجتمع يؤمن، حقاً، بدور الثقافة وخطورتها؛ أي أن المجلات الثقافية ظاهرة لا يسفر عنها إلا مجتمع واع متحضر، شديد الحيوية، أفراداً ومؤسسات، يحترم الثقافة والعاملين فيها، احتراماً عميقاً ويجلها عن أن تكون للزلفى أو المحاباة. لا مجال، إذن، لمجلة ثقافية فاعلة راقية في مجتمع ينظر إلى الثقافة نظرة استهلاكية، نفعية، وإن كان احتفاؤه بها، في الظاهر، احتفاء صاخباً. فالمجلة في مجتمع كهذا قد تكون قطعة في ديكور لا تناغم فيه، أو رقعة في رداء لا يصلح إلا للتهريج. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنا مقتنع تماماً أن المجلة الثقافية حين تكون هاجساً للعاملين فيها، يرافقهم أينما حلوا، يشاركهم الحلم واليقظة، الليل والنهار، عندما تأخذ الصلة بين المجلة وأصحابها صفة الهاجس الدائم سيكون للمجلة تأثيرها العميق.

إن بين المجلة والعاملين فيها صلة من نوع خاص، خيطاً خفياً، رابطة عميقة. وهذه الصلة لا يخلقها مبنى الإدارة، أو توجيهات الرئيس الأعلى بل يخلقها جو من الولاء الخاص للمجلة، والانغمار الحميم بخطها الثقافي وفلسفتها. وما تسعى إلى تحقيقه من أهداف ثقافية وجمالية وفكرية. ولا ينميّ هذه الصلة صفة رسمية، أو ساعات دوام محددة، فمحرر المجلة الثقافية حين يغلق أدراج مكتبه ويغادر المبنى فإنه لا يخرج إلى نهار لا متاعب فيه، ولا يمشي في اتجاه مساء عذب مستريح يخلو من هاجس المجلة ومشاريعها. إنه على العكس من ذلك تماماً، يتجه إلى تنفيذ بعض ما أفرزه هذا النهار المترع بالمتاعب من أفكار ومقترحات. إن مساءه هذا وكل مساء مقبل كذلك، فرصة أخرى لتعب آخر، يظل ممتعاً وجديداً.

يعمل العاملون في المجلة سوية، وبمثابرة خاصة، يومية مستمرة، يتنامى إيقاعها ليشكل في النهاية، عيداً صغيراً لكادر المجلة كله؛ أعني العدد الجديد من المجلة. وما أن يكتمل ابتهاجهم بهذا العيد حتى ينصت الجميع ثانية إلى إيقاع داخلي جديد يدعوهم إلى العمل من أجل عيد صغير آخر، ينتظرهم.

١٦ ـ هذه الافكار بعض مما أحلم به، وأتمناه. ولعلها، أيضاً، بعض من حلمنا جميعاً. ونحن نجتمع هنا نتأمل واقع مجلاتنا الثقافية ونقترح لها أفقاً أرحب تتجه اليه.